٧

العميـــل

إيران؟ لقد تعاقدت فقط على إزالة الأعشاب من مهبط الطائرات بالمطار.

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجلوس تايمز ٢٨ فبراير ١٩٩٢

أدرت مشاريع ميلتشان للأسمدة والكيماويات أموالاً وفيرة، وكانت غطاء جيداً، لكن ليس مثل صفقاته السرية المتزايدة باستمرار والخاصة بأنظمة الدفاع العسكرى عبر شركة ميلتشان إخوان والعديد من شركات الواجهة والحسابات المصرفية المفتوحة لتتولاها.

وانتشرت أسطورة إعادة بناء شركة والده للأسمدة، مما جعله شخصية غامضة شبيهة بالنجوم فى تل أبيب. واكتسب ميلتشان علاقات قوية مع النخبة السياسية، وأصبح محركاً حقيقياً فى عالم ما وراء الكواليس للأمن والتسليح الإسرائيلى. عرف ذلك جميع من كان عليهم أن يعرفوا.

وكان متزوجاً من امرأة جميلة وأباً لابن حديث الولادة، بينما يمارس علاقته مع الحسناء السويدية من ناحية أخرى. لكن لم يجلب أى من هذا السلام الداخلى، فقط القلق الدائم. كان ما زال عليه أن يترك بصمته فى العالم بأسلوب يقترب من إرضاء تطلعاته، وكان دائماً فى رحلة بحث مستمرة عن تحديات جديدة وغير تقليدية. بحلول أواخر الستينيات بدأت هذه التحديات تواجهه وفى هذا يقول ميلتشان: من وجهة نظرى، تعثرت فيها صدفة.

المفـاجئ أنه فى أواخـر السـتينيات قـدمت إيران لعـدد من الإسـرائيليـين الطموحين ذوى العلاقات القوية أكثر فرص المشاريع الدولية أهمية. تم تقديم إحدى هذه الفرص إلى ميلتشـان على طبق من فضـة. ومـجـدداً اسـتـفـاد منهـا أقـصى استفادة.

ومنذ قيام إسرائيل وحتى الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ -أثناء الفترة التى كان يحكم إيران فيها الشاه محمد رضا بهلوى- تمتع كلا البلدين بعلاقة حميمة وخاصة جداً. وكانت إيران فى الواقع ثاني بلد فى العالم يعترف بإسرائيل كدولة مستقلة، بعد الولايات المتحدة مباشرة، وكانت تعتبر أقرب أصدقائها فى العالم الإسلامى.

وكشأن الجميع، انبهر الشاه خاصة بانتصار إسرائيل الساحق فى حرب الأيام الستة، وخلال بضعة أعوام أصبح البلدان يشتركان فى مجموعة كبيرة من

المشـاريع، العسكرية، والزراعيـة، والتـجـارية. وأمـدت إيران إسـرائيل بمعظم احتياجاتها في مجال الطاقة، ودفعت إسرائيل ثمن ذلك بتبادل الخبرات. وبالمساعدة في تأمين وضع الشاه الداخلي المتقلقل والحفاظ عليه. دربت إسرائيل الاستخبارات السرية الإيرانية سـافـاك، وكانت من أكبر قوات الأمن الداخلي في العالم آنذاك وأكثرها شراسة.

أنشأ البلدان معاً شركة مشتركة لتوزيع الطاقة اسمها ترانس أسياتيك أويل. وبعد إغلاق قناة السويس عقب حرب الأيام الستة، كانت إيران تشحن البترول إلى ميناء إيلات في جنوب إسرائيل، وكانت تنقل البترول عبر خطوط الأنابيب إلى مينائها أشدود على البحر المتوسط، ثم تشحنه إلى أوروبا من هناك، متجاوزة في ذلك قناة السويس كلياً. بالنسبة لإسرائيل كان اللاعبون الأساسيون في تبادل السلاح الإيراني الإسرائيلي هو ملحقها العسكري في طهران ياكوف نمرودي، ورجل الأعمال الأمريكي الإسرائيلي آل شويمر، وهو مهرب طائرات سابق أثناء حرب الاستقلال الإسرائيلية والذي كان مؤسس ومدير شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية واسمها حالياً صناعات الفضاء الجوي الإسرائيلية أو (أي إيه أي)، وهي شركة مملوكة للدولة وإحدى أكبر شركات التوظيف في إسرائيل وتقدر مبيعاتها السنوية بـ٥ر٣ مليار دولار. وأدار كل من نمرودي وشويمر العلاقات الإيرانية الإسرائيلية على أعلى المستويات لأعوام وطوراها. وحدثت الطفرة الكبيرة في أعقاب حرب الأيام الستة، بما عزز من سمعة إسرائيل في عيني الشاه ودفعه لتوقيع العديد من العقود السخية في مجال الأمن مع الإسرائيليين.

وبحلول أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان نمرودي وشويمر يحصدان الثمار الوفيرة لمجهوداتهما، ولم يكن لأحد علاقات قوية في إيران تفوق علاقاتهما، لا الاستخبارات الأمريكية ولا وحدة M 15 البريطانية. فتح كل من هذين الرجلين

أبواب إيران للشاب ميلتشان ولإسرائيليين آخرين. وفى عام ١٩٨٢، نشرت جريدة نيويوريك تايمز أن أكثر من نصف كل أنظمة السلاح التى اشترتها إيران، حتى ثورة ١٩٧٩، كان مصدرها إسرائيل مباشرة، أو تم الحصول عليها بواسطة إسرائيل.

وبموافقة شمعون بيريز قدم نمرودى وشويمر للشاه ولكبار الجنرالات فكرة إنشاء شبكة متطورة من محطات الإنذار المبكر على قمم الجبال المتباعدة ومن مواقع التنصت القادرة على اعتراض الاتصالات وإشارات الرادارات من الدول المجاورة لإيران. وأنشأت إسرائيل حلقة إلكترونية مشابهة حول حدودها لأغراض الإنذار المبكر وللتنصت عند الضرورة، وتشاركوا بعض المعلومات مع الشاه ومع قائد القوات الجوية الإيرانية الجنرال محمد خاتمى، كى يقنعوهم بأهمية مثل تلك الاستخبارات.

لكن مساحة إيران تفوق مساحة إسرائيل بأكثر من ٦٠ ضعفاً، وسرعان ما أدرك شويمر أن المشروع ستتجاوز تكلفته المليار دولار بكثير وربما كان أكبر من إمكانيات شركته صناعات الطائرات الإسرائيلية آنذاك. وكان واثقاً أن قسم الإلكترونيات فى شركة (آى إيه آى) أو إلتا يستطيع توفير الهوائيات وبعض الإلكترونيات، وأن الطاقم الإسرائيلى يمكنه أن يتولى أعمال التركيب، والتى قد تصل لحوالى ٢٠٪ من حجم المشروع، لكن كثيراً من العناصر الأخرى كانت تفوق قدرات شركة (آى إيه آى).

لزم الأمر أن تضطلع شركة أكبر بدور المتعهد الأول، وشركة (آى إيه آى) كمتعهد ثانوى لها. ولم تكن إسرائيل تشعر بالارتياح سوى لعدد صغير من الشركات حول العالم وتثق فى قدرتها على تنفيذ مثل ذلك المشروع. وكانت إحدى

تلك الشركات هى نورث أمريكا روكويل. وكانت علاقة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية بشركة روكويل متواضعة، تقدر بعشرة ملايين دولار فى العام من المشاريع المشتركة، أغلبها متعلق بشركة ويستويند للطائرات الخاصة، وهى شركة غير عسكرية لتصنيع الطائرات فى إسرائيل. لكن حتى هذا كان يعد مخاطرة بالنسبة لشركة روكويل التى تحسبت لخسارة الأرباح المحتملة من الدول العربية الغنية بالبترول والتى ظلت ملتزمة بالمقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، لذا حُكِم على تلك العلاقة بالسرية.

ويدأ قلق مجلس إدارة شركة روكويل يتزايد حيث بدا البترول السعودى أكثر إغراء من الدخول فى مشاريع مع إسرائيل، لذلك قرروا إرسال نائب الرئيس المعين حديثاً وممثل تطوير المشاريع الإقليمية إلى تل أبيب ليريا ما إن كان المشروع المشترك يمكن أن يعاد بناؤه ليكون أكثر سرية أو يلغى برمته.

وكان الممثل الإقليمى الذى أرسلوه مهندساً رفيع المستوى واسمه الدكتور ريتشارد أو ديك كيلى سميث. كان سميث وهو فى أوائل الأربعينيات شخصية غير اعتيادية، إذ كان عالماً وعالم رياضيات ذا طموحات فى مجال الأعمال. نشأ فى ريف أكلاهوما وعانى مادياً لأعوام عديدة ليكمل دراسته، وفى النهاية حصل على شهادة جامعية فى مجال الفيزياء من جامعة كالتيتش، ثم الماجيستير والدكتوراه فى هندسة الكهرباء والرياضيات من جامعة جنوب كاليفورنيا. وأثناء ذلك كله تزوج سميث وأنجب خمسة من الأبناء. شق سميث طريقه إلى القمة، ليلعب فى النهاية دوراً رائداً فى تطوير أنظمة توجيه الصواريخ المتقدمة والتحكم فى الطيران الأوتوماتيكى. واكتسب سمعة قوية بين أقرانه وتم تعيينه فى العديد من مجالس الإدارات ومفوضيات الدفاع العسكرى فى وزارة الدفاع الأمريكية، والناتو وناسا.

هبط سميث فى مطار إسرائيل الدولى ووقف فى صف مراجعة جوازات السفر الطويل. وفجأة شعر بأحدهم يضع يده على كتفه من الخلف، وعندما التفت، مد شاب يده إليه وقدم نفسه بأنه أرنون ميلتشان. وتبادل كلاهما المزاح. وصدم سميث عندما رأى كم كان ميلتشان صغير السن. وكان قد سمع به لأول مرة من الجنرال غريتيل، والذى كان يعمل فى قسم المحاسبة فى شركة روكويل، وافترض أنه لاعب رئيسى فى صناعات الفضاء الجوى الإسرائيلية المتنامية. ولم تتطابق الصورة التى رسمها فى مخيلته مع الشخص الواقف أمامه.

وبسلاسة اصطحب أرنون سميث عبر الحشود فى صفوف مراجعة جوازات السفر، وتجاوز سريعاً الإجراءات الشكلية لإدارة الهجرة، وخرجا من المطار وتوجها إلى سيارة أرنون الشيفروليه الحمراء المكشوفة المركونة فى الممنوع، لكنها لم تُقطَر أو تنال مخالفة.

فى الحقيقة، فإن القول بأن أرنون كان يمثل شركة روكويل أو أية شركة أخرى متعلقة بالدفاع العسكرى سيعد بالمفهوم التقليدى أمراً على قدر من التضليل. كان أرنون يمثل الدولة الإسرائيلية ويمثل نفسه وشركته، ثم بعد ذلك شركة روكويل بذلك الترتيب بالضبط. من غير الواضح معرفة ما إن كانت شركة روكويل –أو شركة رايثون أو بيتشكرافت، أو أى متعهد دفاع عسكرى آخر كان يعمل معه– على دراية بتلك الحقيقة.

قد افترض كيلى سميث فى الأساس أن الشاب أرنون ما هو إلا موظف حكومى بسيط تم تكليفه بتسهيل تواجد روكويل فى إسرائيل، وتساءل بسذاجة كيف يمكن لموظف مدنى شاب أن يقدر مادياً على قيادة سيارة أمريكية مكشوفة مستوردة، وكانت نادرة فى إسرائيل فى ذلك الوقت. لكنه لاحقاً أدرك إلى أى مدى

استهان بأرنون، وبدأ يستوعب العلاقة المعقدة بين أرنون ودولة إسرائيل، لكنه لم يفهمها بشكل كلى أبداً.

وبقدر ما كان الإنكار الظاهرى بالنسبة للمتعهد الأمريكي جزءاً من الصفقة، فإن ما فعله أرنون حقيقة بالمبلغ الذى تلقاه لم يكن من شأن شركة روكويل، فقد كانوا مهتمين فقط بالنتائج التي سيحققها، وعلى هذا الصعيد لم يكن ثمة سوى القليل من الشكوى.

ونظراً لجهلهم بأسلوب إسرائيل الفريد فى إدارة العمليات وبدور أرنون الاستثنائي فيها، كان كلما عرض متعهدو الدفاع الأمريكيون على وزارة الدفاع الإسرائيلية عملية بيع محتملة، تم توجيههم بشكل روتينى إلى الحديث مع أرنون، وتحير بعضهم فى سبب تفضيل الدولة للتعامل مع وسيط عن التعامل معها مباشرة. كانت تلك الصفقة بالنسبة لدولة فى حالة حرب مستمرة منذ قبل قيامها، تُخصص ٨٪ من إجمالى ناتجها المحلى، ونسبة متزايدة من صادراتها، وحوالى ١٦٪ من إجمالى ميزانيتها للنفقات المتعلقة بالدفاع العسكرى الضرورية لبقائها - هامة وكانت قابلة للازدياد بسرعة.

عندما بدا واضحاً أن شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية تحتاج لأن توقع شركة روكويل على مشروع المراقبة الإيرانى وشركة (آى إيه آى) كمتعهدها الثانوى، تم استدعاء ميلتشان لتقديم بيان موجز فى لاكام لوضع استراتيجية لإقناعهم بذلك. وكان هذا أول اشتراك فعلى له فى مشروع دولى سرى لا يتضمن مبيعات إلى وزارة الدفاع الإسرائيلية بل تصديراً من إسرائيل إلى بلد ثالث. ومنذ البداية تم إبلاغ أرنون أنه إن سارت تلك الصفقة على ما يرام مع عميلته شركة روكويل، فسيكون هناك المزيد من الفرص الدولية بالنسبة له بالإضافة إلى إيران.

وكان مفهوماً أيضاً أن الصفقات التي سيبرمها أرنون والتى لا تتضمن إرسال شحنات إلى إسرائيل ستعنى أن تئول العمولات إليه وليس إلى الحسابات السرية الإسرائيلية. فعلى الرجل فى النهاية أن يتكسب قوته.

وبعد شرح أهمية المشروع، وجه بلومبيرغ ميلتشان لتقييم ريتشارد كيلى سميث، ومعاملته كشخصية هامة، وبأن يأكل ويشرب معه، ويتعرف على نقاط ضعفه، ويبحث عن نقائصه الشخصية. والأهم من ذلك، كُلِف بإلزام سميث بالمشروع الإيرانى.

وفى الحال بدأ ميلتشان فى تنظيم مجموعة من الاجتماعات لسميث مع شخصيات إسرائيلية بالغة الأهمية، ليس لأن مساهمة تلك الشخصيات الهامة سيكون هاماً تقنياً للمشروع، لكن كان المهم هو التوضيح الكافى لسميث، ثم لرؤسائه فى مقر روكويل فى لوس أنجلوس، مستوى العلاقات التى أشركها أرنون فى الصفقة. لكن كان هناك أيضاً دافع آخر، وهو أن يستوعب سميث أنه أهل للثقة بما يكفى للانضمام لدائرة النخبة الداخلية فى إسرائيل، تلك الميزة التى لم يكن يتمتع بها الوافدون العاديون إلى إسرائيل، وتقييم ردة فعله أيضاً.

عقب لقائهما الأول فى مطار بن جوريون، أوصل ميلتشان سميث بسيارته إلى فندق هيلتون تل أبيب على الشاطئ ليقدم له ملخصاً مبدئياً. كانت لأشعة الشمس الدافئة، والنسيم البارد العليل، ومياه البحر المتوسط الزرقاء، والصوت الرخيم للأمواج المتلاطمة وقع السحر، وكذلك منظر الشاطئ الرملى الطويل الممتد جنوباً حتى يافا، والتى شرح ميلتشان لسميث أن جده وصل إليها أول ما وصل فى القرن الماضى. وعلى مرمى البصر كان يرى بوضوح التل الذى قذف إليه الحوت النبى يونس عليه السلام فى القصة التوراتية الشهيرة التى تعلمها وهو طفل.

وكشأن الكثيرين من قبله، تعلق سميث بإسرائيل.

وبعد نوم ليلى هانئ، تجول ميلتشان مع سميث فى مكاتب الجنرالات والسياسيين المشهورين، وكان قد أطلعهم مسبقاً على الأمر، وشرح لهم أهمية العلاقة مع شركة روكويل عامة وأهمية المشروع مع إيران خاصة. وكان سميث قد أتى إلى إسرائيل ليناقش بحرص تخفيض درجة علانية شركة روكويل بسبب مخاوفهم من المقاطعة العربية.

وبدلاً من ذلك وجد نفسه فى دوامة من الاجتماعات وقُدِمت فرصة ضخمة لشركة روكويل فى إيران. غيّر هذا من وتيرة الأحداث فى الحال. إذ استشعر سميث أن شخصاً ما قد أطلع الإسرائيليين مقدماً على الغرض من مهمته فى إسرائيل، وكانوا مستعدين تماماً لإبرام صفقة مضادة مع شركة روكويل سيصعب عليها رفضها.

فى تلك الليلة اصطحب ميلتشان سميث لتناول العشاء فى مطعم الحمراء جنوب تل أبيب. وكان المطعم من أوائل المطاعم الراقية فى إسرائيل وكان قطعاً من أغلى المطاعم فى البلد آنذاك، حيث كان يقدم الأصناف الفرنسية غير اليهودية، ويُعَد الوُجهة الأولى لنخبة إسرائيل. وكان لوزير الدفاع موشيه ديان مائدة دائمة خاصة به، وتصادف فى تلك الليلة أنه كان يستضيف ضيفين أجنبيين ترافقهما امرأتان رائعتا الجمال.

وكان ديان المتزوج زير نساء سيئ السمعة وكان نصف البلد يعرفون بذلك. وكان أيضاً من مشاهير العالم وظهر على غلافى مجلتى تايم ونيوزويك، ثم تعرف عليه فى الحال بفضل رقعة عينه الشهيرة. قدم ميلتشان ديان لسميث بشكل عفوى، وفى الحال فتن، وتفاجأ، وانبهر بدفء العلاقة بين ميلتشان وديان.

وعلى العشاء عبر سميث عن قلقه بخصوص قدرة شركة روكويل على استصدار تراخيص التصدير الأمريكية الضرورية لإيران لتلك التكنولوجيا الحساسة، إذ سيتطلب هذا موافقة عدة مستويات من الوكالات المتنافسة والكيانات المترفعة. وأكد له ميلتشان أن المسئولين في سبيلهم للتوصل لحل لذلك. وتحير سميث بشأن ثقة ميلتشان.

وفي الواقع، كان الإسرائيليون قد وضعوا في اعتبارهم كل العقبات وقاموا بالترتيب لحالة تفاوضية شعروا يقيناً بأنها ستغرى الحكومة الأمريكية بعرض لا يمكنها رفضه. بالطبع كان قد تم للموساد إطلاع جيمس جيزاس أنغلتون من الاستخبارات الأمريكية، والذى كان يتولى الملف الإسرائيلي، جزئياً على الأمر وأبدى موافقة مبدئية، لكن الاستخبارات الأمريكية سى أى إيه بقيادة رئيسها ريتشادر هيلمز كانت هي صاحبة الكلمة الأخيرة، وكانت هذه هي البداية فحسب. وأطلع ميلتشان سميث على الخطة، كما تم التنسيق لها مع فريق الشاه التفاوضي، كان موقف إيران هو أنها مهتمة فحسب بمواقع المراقبة بطول حدودها مع أفغانستان وباكستان والخليج العربي والعراق. ولم يأتوا بأى ذكر لحدودهم الشاسعة مع الاتحاد السوفييتي شمالاً.

عندما ترددت وزارة الدفاع الأمريكية ووزارة الخارجية مسبقاً بخصوص التصريح بتمرير تلك الصفقة الحساسة والتي تنطوي على تجسس إيران على حلفاء الولايات المتحدة مثل المملكة العربية السعودية، أضافت إيران عرضاً آخر مغرياً إلى الصفقة إذ عرضت موقعي مراقبة بطول حدودها مع الاتحاد السوفييتي، الأول في بوشهر والثاني في كابكان. بتكلفة إضافية بسيطة، تتكفل بها إيران.

بدأت الولايات المتحدة تميل إلى الفكرة لكنها كانت لا تزال مترددة.

ثم قدمت إيران دعوة للاستخبارت الأمريكية سى آى إيه وللبنتاجون للحصول مباشرة على كل المعلومات التى تم اعتراضها والاتصالات التى تم تجميعها من الجبهة السوفييتية بواسطة مواقع المراقبة الإيرانية. وكما هو متوقع كان لإسرائيل مصالحها المسبقة فى المعلومات الاستخباراتية التى تجمع من الدول العربية المجاورة.

وكانت الولايات المتحدة تواجه مشكلة فى تقبل فكرة حصول إيران على أحدث تقنياتها التشفيرية. بيّن ميلتشان أنه بدلاً من ذلك سيتم إشراك الشركة السويسرية التى قامت بتشفير نظام المصارف السويسرية السرى جميعه.

ودخل الأمريكيون إلى ذلك المجال.

كان للحكومة الأمريكية أن تحصل على استخبارات إلكترونية مجانية من الحدود الجنوبية السوفييتية، وحصل أحد المتعهدين الأمريكيين على صفقة بمليار دولار. وسمى الأمريكيون المشروع لاحقاً "دارك جين" بالنسبة للعناصر الجوية، و"آيبيكس" بالنسبة لمواقع المراقبة الإلكترونية. آيبيكس وهو اسم معزة جبلية نادرة توجد فى إيران، وكانت الحيوان البرى الذى يفضل الشاه اصطياده.

وطمأن ميلتشان سميث أنه بالنسبة للإيرانيين فإن الصفقة قد أبرمت بالفعل. وأخطره بأن ممثل روكويل فى إيران سيكون الجنرال محمد خاتمى، قائد القوات الجوية الإيرانية وزوج أخت الشاه. وعَيَّن خاتمى وسيط اتصال مباشراً ليعمل كواجهة له، يتخفى خاتمى وراءها. وكان الشاه يدعمه.

صدم الشاب ميلتشان سميث حيث فتنه بسحره، وبإلمامه بالموقف، وتقديمه المتطور، وحجم المشروع، والتبعات الجيوستراتيجية المحتملة، والجرأة المطلقة لتلك التجربة. أوجز له ميلتشان قصة ميراثه لشركة أسمدة فاشلة عن والده وتحويلها

لأحد مراكز القوة. ولم يفهم سميث أن وراء هذا الوجه الشاب كانت لاكام، وبنيامين بلومبيرغ، وياكوف نيمرودى، وآل شويمر، وفى النهاية الآلة الاستخباراتية للدولة الإسرائيلية. لكن ما أدركه هو أن ميلتشان ليس موظفاً مدنياً بسيطاً كما تكهن بداية. وفى النهاية ظن أنه بدأ يُلِم بالصورة العامة.

ومن ناحيته، استشعر ميلتشان أنه كان فى سبيله إلى النجاح فى ترك انطباع جيد لدى المهندس الأمريكي الأكبر منه سناً. وشعر أيضاً أن سميث شخص يمكنه تجنيده. ولاحظ فى سميث تذوقاً قوياً للحياة المرفهة، وميلاً إلى المال والنساء، بالرغم أنه كان متزوجاً وتدفع له شركة روكويل راتباً ضخماً. ولاحظ غروره المتضخم -إذ أصر الرجل على استخدام لقب دكتور كلما أتيحت له الفرصة- وشعوره بأنه ومواهبه لا ينالون التقدير الكافى.

كان سميث بالفعل مهندس إلكترونيات موهوباً عميق المعرفة فى مجال أنظمة السلاح، والمواد، والتكنولوجيات، وسبل الحصول عليها. كانت تلك مواهب يمكن لكل من ميلتشان ولاكام الاستفادة منها. وبدا سميث مهتماً بالتاريخ وكان يجيب بحماسة وتبجيل فى لقاءاته مع الشخصيات الهامة فى إسرائيل.

وعندما كان يُسأل بشكل عفوى ولطيف عن تفهمه للصراع العربى الإسرائيلى، كان ينحاز لإسرائيل دائماً. وربما كان بعض من هذا لإرضاء مضيفيه ويمكن ألا يحتسب، لكن ميلتشان استشعر مستوى قوياً من الأصالة فى تعبيراته الداعمة. وكما هو مخطط له، لم يكن سميث يعرف أنه يجرى تقييمه.

أوضح ميلتشان أنه فيما يخص الإسرائيليين والإيرانيين، كان المشروع قد تمت الموافقة عليه، طالما ستحصل شركة (أى إيه أى) على نسبة ٢٠٪ من المشروع كمتعهد ثانوى. وأكد لسميث أنه قادر على توجيه روكويل عبر النظام الإيرانى،

وسيعتمد ميلتشان على نمرودى ولاكام لتوجيهه، لكن لم يكن هذا ما يقلق سميث.

كان ميلتشان يعرف أن شركة روكويل تستطيع تولى تلك المهمة، لكن مصدر قلقه الأساسى كان كيفية تمرير المشروع عبر البيروقراطية الأمريكية للحصول على تراخيص التصدير اللازمة وموافقات الوكالات العديدة. كانت تلك هى العقبة الكبرى، وسعى لطمأنة سميث بأنه أهل لتلك المهمة. ولم يتردد سميث فى القبول، إذ كان يعلم أنه سيكون لديه قسم كامل يعاونونه.

ولاحقاً فى تلك الليلة أجرى سميث مكالمة هاتفية عاجلة من غرفته بالفندق إلى رئيس مجلس إدارة شركة روكويل ليبلغه بمستجدات الأحداث. وأُعطِىَ الضوء الأخضر لمواصلة المهمة.

شمل اليوم التالى إفطار عمل فى فندق هيلتون وبعض الجولات السياحية. وذكر سميث أنه مهتم بشراء ماسة لزوجته وكان قد سمع أن بورصة تل أبيب للماس هى المكان الأمثل لعقد الصفقات الجيدة. فاتصل ميلتشان بأحد معارفه وخلال لحظات دبر لاجتماع سرى بالبورصة حيث عرض على سميث صفقة بيع رائعة بسعر الجملة لماسة وزنها قيراط لزوجته. وبدت كل ساعة وكأنها تحمل فرصة جديدة ليبهر ميلتشان سميث بعلاقاته.

وعقب شراء الماسة توجه الرجلان لكنيسة القبر المقدس فى القدس، وكنيسة المهد فى بيت لحم، وجبل مسعدة المطل على البحر الميت. وحاضر ميلتشان سميث فى تاريخ تلك المواقع وأوضاعها السياسية بمعرفة واسعة وبحماس متقد. وأخذ انبهار سميث بهذا الشاب يزداد اللحظة تلو الأخرى. وتأثر خاصة بجبل مسعدة والموقف المأساوى والبطولى معاً الذى اتخذته طائفة الزيلوت اليهودية أو الغيورون فى لحظاتهم الأخيرة فى المعركة أمام الجنود الرومان المعتدين قبل أن ينتحروا

بشكل جماعي في النهاية بدلاً من أن يستسلموا للعبودية.

وفى اليوم التالى اصطحب ميلتشان سميث إلى المطار ورافقه شخصياً عبر الأمن إلى قاعة كبار الزوار لينتظر طائرته. وترك الرجلان بعضهما بمصافحة قوية وبوعود بدوام الاتصال والعمل جنباً إلى جنب لإنجاح المشروع. وأدى ميلتشان مهمته، وغادر سميث إسرائيل فى ذلك اليوم محملاً بمشروع كبير محتمل، وبمزيد من الإعجاب لإسرائيل، وبما شعر أن صداقة قوية مع ممثلى شركة روكويل فى إسرائيل قد بدأت.

وما أن عاد لمقر شركة روكويل فى لوس أنجلوس وأطلع مجلس إدارة الشركة على المجريات، تم إعطاؤه موافقة مؤقته. واجتمع الفريق التقنى وبدأت عملية تصميم المشروع المعقدة وتوجيهه ليمر عبر البيروقراطية الأمريكية الشرسة.

لكن كان هناك اجتماع روتينى أخر عقده سميث لدى عودته إلى لوس أنجلوس، وهو اجتماع يعقده أغلب متعهدى الدفاع العسكرى رفيعى المستوى لدى عودتهم من المشاريع الخارجية كشرط للحفاظ على تراخيصهم بالغة السرية، وهو اجتماع مع عميل من السى آى إيه يستجوب فيه مسئولى الدفاع العسكرى بخصوص مقابلاتهم مع المسئولين الأجانب أثناء رحلاتهم الخارجية، ليعرف ما يمكن معرفته عن النوايا والأساليب، وليقيّم محاولات التجنيد أو الاختراق.

كان متعهدو الدفاع العسكرى من أمثال سميث يعملون كمصادر مساعدة لإمداد عملاء السى آى إيه حول العالم بالمعلومات، وبالرغم من اتفاقاتهم على ألا يتجسسوا على بعضهم البعض، كانت إسرائيل بالقطع من الدول التى تركز عليها السى آى إيه. وكشف ريتشارد كيلى سميث بشكل تلقائى عن كل معارفه وأصدقائه فى إسرائيل أثناء الرحلة، وذكر ميلتشان بالاسم، ضمن آخرين، بينما كان العميل

يدون ملاحظات كما اعتاد أن يفعل فى اجتماعاتهما السابقة. ولم تكن تلك المرة الأولى التى يلاحظ فيها عميل لسى آى إيه اسم أرنون ميلتشان.

ومن إسرائيل، أخذ ميلتشان يتابع تقدم سميث بعناية ومن خلال المساعدة السرية للملحق العسكرى الإسرائيلى فى طهران ياكوف نمرودى، وتمكن من توجيه شركة روكويل عبر العالم الإيرانى الفاسد والمعقد لشراء الأسلحة. وحرص رجل نمرودى الخفى على التعرف على سمسار الجنرال خاتمى.

وقّع الإيرانيون خلال أشهر على عقد مطول ومعقد صاغه فريق روكويل القانونى. وعقب ذلك ببضعة أشهر سافر مدير أمن شركة روكويل شخصياً على طائرة سابرلاينر ومعه كومة من الأوراق طولها أكثر من ١٠ أقدام تمثل مشروع المليار دولار، وشملت كل تصميم وكل تفصيلة، حيث كان قد مر بمكتب البنتاجون لمراقبة الذخائر لتفحصه البنتاجون، ووكالة الأمن القومى (إن إس إيه)، والاستخبارات المركزية الأمريكية سى آى إيه، ووزارة الخارجية، حيث كان يجب أن ينال المشروع موافقتهم جميعهم قبل أن يتم البدء فى تنفيذه. وبعد ستة أشهر –أى فى وقت قياسى– فى الواقع، تمت الموافقة على المشروع، وفى مطلع عام ١٩٦٩، بدأ تنفيذ الإنشاءات. وكان ميلتشان فى الرابع والعشرين من عمره.

فى ١٩٦٨، كان موتى بلوك –اختصاصى الإنشاءات بالقوات الجوية الإسرائيلية والبحرية، ومتخصص فى الاتصالات وتجهيزات الرادارات– يصف فى مذكراته عودته ذات يوم عرقان ومتسخاً من شبه جزيرة سيناء بعد العمل فى مشروع ضخم. وعندما وصل لمنزله أخبرته زوجته أن شخصاً ما يحاول الاتصال به وأنه مطلوب لاجتماع عاجل فى تل أبيب.

ولأنه محترف مخضرم، ذهب فى الحال. "سنرسلك إلى إيران بعد ثلاثة أيام"

كان هذا ما أُخطر به. لم يكن بلوك سعيداً بذلك وحاول أن يعرف من وراء هذه المهمة المفاجئة، "إن أخبرناك أن بنيامين هو الذى وراءها، أسيكفيك هذا؟" وُجه إليه هذا السؤال بدون أى انتظار لإجابة منه.

"بلومبيرغ كان اسماً مقدساً" هكذا يقول بلوك "لم أقابله يوماً لكن كل المطلعين يعرفون أن له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالأمن القومى". هكذا عرف بلوك أنه سيسافر إلى إيران ليس لأسباب تجارية فقط، لكن لغرض يخص الأمن القومى. "طلبوا منا أن نفتح أعيننا ونرسل التقارير".

قبل مغادرته، أُطلع على حقيقة أنه سيعمل لدى شركة اسمها ساريك إيران. وخلال ثلاثة أيام من عودته من سيناء، وصل موتى إلى طهران. وانضم لفريق يشمل خمسة عشر إسرائيلياً وأمريكيين من شركة روكويل، وعينوا حوالى ٧٥٠ إيرانياً لأجل هذه المهمة، أو ١٥٠ عاملاً إيرانياً لكل مشرف إسرائيلى

تم إنشاء مبانى الاتصالات فى ١٤ موقعاً مختلفاً، وشمل كل موقع قبتين للرادار، و٤ هوائيات، وبرجاً للاتصالات ذا أطباق استقبال ضخمة كانت تستخدم فى اتصالات العمليات وكانت تسمى الوحوش. وكانت المواقع ممتدة من الحدود الجنوبية مع باكستان، إلى بندر عباس عند مدخل الخليج العربى، إلى الشمال الغربى تجاه بيشاور، مروراً بمركز البلد، ثم إلى شيراز، ثم إسبان، ثم طهران. وفى تلك الأيام كان الضباط ورجال الأعمال الإسرائيليون والإيرانيون يعبرون الحدود بشكل منتظم، ويتبادلون المعرفة، ويستثمرون فى مشاريع مشتركة. كان الأمريكيون يجلبون المعدات، وكان الإسرائيليون يقدمون الخبرة، وكان الإيرانيون يقدمون الأموال. كانت هناك شركات إسرائيلية قائمة هناك، وكان الإسرائيليون هم المهيمنين فى البلد.

وكان موتي بلوك يطلع لاكام على ملاحظاته في إيران، وكان من أول من حذروا بشدة من تزايد قوة الإسلاميين المتطرفين في البلد، وتنبأ بثورة قريبة. وخدمت تلك المعلومات ميلتشان بشكل جيد.

واستمتع ميلتشان بنشاطاته في إيران، وقضى عدة سهرات في الملاهي الليلية في جادة باهلانو الراقية في طهران. وكان دوره في مشروع المراقبة الإلكتروني الإيراني، أبيكس، يعد طفرة بالنسبة له، وامتدت عواقبه لمدى بعيد. وكسب ود الشاه نفسه في القصر الملكي، وأبرم العديد من العقود الزراعية والعسكرية الإضافية في حقبة السبعينيات بأسلوبه الساحر. وأسس العديد من الشركات في إيران لخدمة تلك العقود، ومنها إنشاء قاعدة جوية كبيرة جديدة، والتي زَعَم لاحقاً أنه مجرد عقد لإزالة الأعشاب حول المهبط الجوي. وأصبحت شركته "فارم ميديسين" أكبر شركة كيماويات زراعية في إيران.

ولم يتم تجاهل شركة رايثيون والتي كانت عميلة ميلتشان، إذ باعت رايثيون صواريخ هوك أرض/ جو مطورة متوسطة المدى لإيران في السبعينيات، وتم تركيب أنظمة إلكترونية متطورة بالغة السرية في طائرة الشاه الشخصية من قبل إي سيستيمز وهي شركة فرعية سرية تابعة لرايثيون. وطلب الجنرال خاتمي العديد من صواريخ سايدويندر وفينيكس وسبارو ومافريك من أجل القوات الجوية الإيرانية. ومن تلك الصفقات، ومن كل الصفقات خارج إسرائيل، كان ميلتشان يأخذ عمولته.

وبحلول سنة ١٩٧٢ كانت مرحلة الإنشاء في مشروع آيبيكس قد شارفت على الانتهاء وتم استبعاد المشاركة الإسرائيلية. وبانتقال الإسرائيليين وميلتشان إلى مشاريع أخرى في إيران، تطور كل من مشروع "آيبيكس" و"دارك جين" وتوسعا طوال السبعينيات ليصبحا عملية أمريكية مستمرة بالغة السرية على الحدود

الجنوبية للاتحاد السوفييتي.

واستثمرت شركة روكويل في العديد من المشاريع التحديثية. وفى ٢٨ أغسطس عام ١٩٧٦تم اغتيال ثلاثة موظفين لروكويل يعملون فى مشروع آيبيكس فى طهران بواسطة من اشتبه فى أنهم عملاء سوفييت أو متطرفون إسلاميون، ولم تكتشف ملابسات تلك الواقعة بشكل حاسم قط. وأصبحت روكويل نفسها غارقة فى فضائح الرشاوى المتعلقة بآيبيكس، والتى نشر تفاصيلها الصحفى بوب وودوارد على الصفحة الأولى لجريدة واشنطن بوست فى ٢ يناير عام ١٩٧٧ . وكانت تلك المرة الأولى التى يسمع فيها العالم عن آيبيكس، لكن آنذاك كان ميلتشان قد تملص منها منذ فترة طويلة، إذ كان لديه مشاريع أخرى فى إيران وفى مناطق أخرى حول العالم.

وفى عام ١٩٧٥ توفى زوج أخت الشاه وأقرب مخلصيه الجنرال محمد خاتمى، والذى لعب دور الممثل الفعلى لشركة روكويل فى إيران. مات فى حادثة قفز بالمظلات غامضة تزامناً مع بدء القلاقل فى البلاد بأسلوب منتظم. وكانت الجماعة المتطرفة تودا هى المشتبه به المعتاد. وكنتيجة للثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، تم تفعيل خاصية التدمير الذاتى لمواقع التنصت لتجنب وقوعها فى أياد معادية.

كان ياكوف نمرودى من الأشخاص الذين ساهم نجاح ميلتشان فى إيران، إذ كان قد أصابه الملل من مشاهدة نخبة إسرائيل، وبخاصة شاب فى عمر أرنون، يزدادون ثراء فى إيران نتيجة صلاتهم، تلك الصلات التى كان نمرودى نفسه قد عمل على تنميتها على مدار أعوام عديدة. وبحلول عام ١٩٧٠ استقال نمرودى من منصبه كملحق عسكرى إسرائيلى فى طهران وبدأ مشروعه الشخصى الناجح لتجارة السلاح، والذى جنى منه الملايين فى النهاية بعقده صفقات فى إيران

ومناطق أخرى. تورط نمرودى لاحقاً مع آل شويمر فى فضيحة إيران كونترا، بينما نأى ميلتشان بنفسه عنها، بالرغم من أنها كانت تنطوى على بيع صواريخ هوك من شركة رايثيون عن طريق إسرائيل.

فى عام ١٩٧٨، أدرك ميلتشان أن الشاه كان على وشك أن يطاح به، وأنها مجرد مسألة وقت قبل انهيار نظامه. وتحرك سريعاً لبيع شركة فارم ميديسين، والتى كانت قد أصبحت أكبر مجموعة شركات زراعية فى إيران، ومعها كل مشاريعه الأخرى فى إيران بأرباح كبيرة. وعقب ذلك بعام، استولى آية الله الخمينى والمتطرفون الإسلاميون على البلد كلياً. وتجنب ميلتشان طلقة النهاية باتباعه لحدسه وغادر المشهد قبل فوات الأوان.

ومع بداية السبعينيات، كانت شركة ميلتشان إخوان قد افتتحت أفرعاً فى بلاد عدة، ومنها عدد من الدول التى لم تكن بينها وبين إسرائيل علاقات دبلوماسية، وفى بعض الحالات بلاد كانت فى حالة حرب مع إسرائيل. وعبر الشركات الفرعية فى اليونان وقبرص، افتُتِح لها أفرع فى مصر والسودان وإثيوبيا والأردن وتركيا، ضمن بلاد أخرى. وكانت تلك الشركات غالباً ما تُستخدم كواجهات لوفاء المتطلبات المتعددة لدولة إسرائيل. وفى قمة تلك الأنشطة، كان ميلتشان يتحكم فى أكثر من ٣٠ شركة فى ١٧ دولة، وقال فى هذا الصدد "أعطيت إسرائيل تفويضاً مطلقاً لاستغلال شركاتى للمساعدة فى الدفاع عن بلدى وبقائه".

لكن إيران كانت أول مكان انهمرت عليه فيه المكاسب المالية المفاجئة على مستوى دولى، وربما كان المكسب الأهم من مشروع المراقبة الإيرانى هو علاقة ميلتشان التى تطورت مع ريتشارد كيلى سميث فى روكويل. عمل الاثنان جنباً إلى جنب طوال تطوير مشروع أيبيكس، فى إيران وإسرائيل، ونشأ بينهما مستوى من

الثقة، وأتيحت لميلتشان عدة فرص لنثر بذور المرحلة المقبلة. وفى أواخر عام ١٩٧٢ جلس ميلتشان وسميث معاً مجدداً على العشاء، وهذه المرة فى مطعم كاسباه فى شمال تل أبيب أثناء إحدى زيارات سميث الروتينية كجزء من مسئولياته فى تطوير منظومة العمل.

وشعر ميلتشان بالارتياح بما يكفى للإدلاء بتلميحات عن نواياه، حيث اقترح أن تلك اللحظة ربما تكون المواتية لسميث ليجنى مبالغ كبيرة فى مشروعه التجارى الخاص. وكان يعرف سميث بقدر مكنه من أن يدرك أنه يشعر أن روكويل تبخسه قدره وراتبه. كان يعرف أن سميث لم يكن من محبى ثقافة المؤسسات حيث يدير الآخرون وقته وينسقونه، وأنه كان مسئولاً أمام أشخاص يراهم يعملون أقل منه لكنهم يتقاضون رواتب أكبر منه.

لكنها كانت مخاطرة بالنسبة لسميث الذى كانت أشياء مثل التأمين الصحى، ومعاش التقاعد، وأمان الوظيفة تثقل تفكيره. وفكر ملياً فى الطريق الطويل الذى قطعه من أوكلاهوما الريفية حتى وصل إلى مركزه الحالى فى أعلى مستويات مجاله. سنوات من التعليم المكلف، وعائلته، وأبناؤه، وأقساط الرهن. كان غارقاً فى الالتزامات.

واستشعر ميلتشان درجة من التردد من سميث. وأوضح أن الفكرة هى العمل بشكل قانوني ومعلن، وأنه يستطيع تزويده بكل الطلبات التي يمكنه توليها من قائمة طويلة من الأغراض المطلوبة لمشاريع عدة. وتحمس سميث لفكرة انخراطه فى بعض أكثر برامج إسرائيل سرية، لكن فكرة استقلاله بذاته، ووضع جدوله الخاص، وتحسين مستوى معيشته كانت أقوى المغريات. وعرف ميلتشان مواطن ضعفه، وبالطبع كان الطمع أبرزها.

كان العرض مغرياً، فألقى ميلتشان بنوره، ومضى سميث يتصور بالفعل كيف سيخبر زوجته إيميلي بأنها يمكنها أن تستقيل من عملها كمعلمة. وامتلأ عقله بصور لمنازل مواجهة للبحر وعضويات نوادي اليخوت.